المجموعة التاريخية للصغار

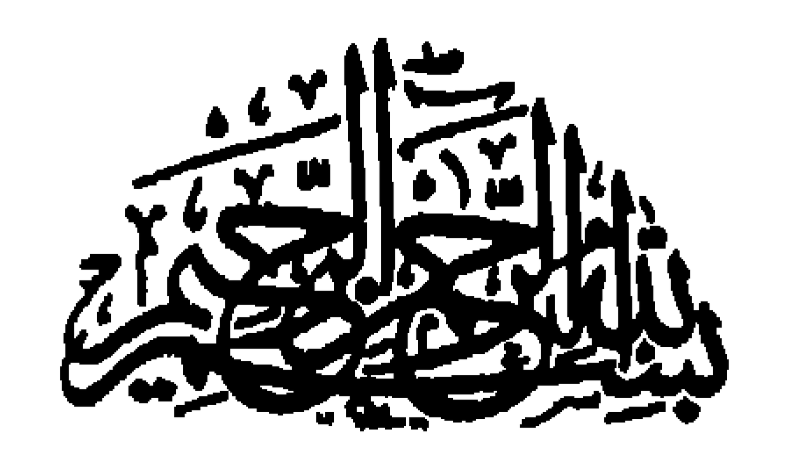
جنّةُ البلدانِ

عجائب رحلة ابن بطوطة



إعـداد
عبدالقادر محمد مايو

مراجعة
أحمد عبدالله فرهود



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

مضبوطة ومشكولة

1423 هـ - 2003 م

عنوان الدار :

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي ص.ب : 78

هاتف 2213129 3 / 2269599 فاكس : 2212361 21 963+

email : qalamrab@scs-net.org

جَنَّةُ البُلْـدَانِ

اتَّخَذَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ مَجْلِسَهُ فِي صَدْرِ قَاعَةِ العَرْشِ ، بِمَدِينَةِ فَاسَ المَغْرِبِيَّةِ ، وَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ نَدِيمُهُ المُتَحَدِّثُ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ ، وَكَاتِبُهُ مُحَمَّدُ بْنُ جُزَيٍّ . وَكَانَ السُّلْطَانُ فِي تِلْكَ اللَيْلَةِ مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ مَسْرُورَ الخَاطِرِ ، فَاسْتَقْبَلَ ضَيْفَيْهِ بِالتِّرْحَابِ وَالابْتِسَامِ وَبَادَرَ الأَوَّلَ مِنْهُمَا وَهُوَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ إِلَىٰ أَيْنَ بَلَغْتَ بِنَا فِي رِحْلَتِكَ المَيْمُونَةِ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ وَعَهْدُنَا بِكَ أَنَّكَ كُنْتَ قَاصِداً الحَجَّ إِلَىٰ بَيْتِ اللهِ الحَرَامِ فِي مَكَّةَ المَكَرَّمَةِ . .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ صَدَقْتَ يَا مَوْلَايَ السُّلْطَانَ فِي مَعْرِفَةِ وِجْهَتِي وَقَصْدِي ، وَأَنَا فِي طَرِيقِي لِلوُصُولِ بِكَ إِلَىٰ هُنَاكَ وَلَكِنْ رُوَيْداً ، فَقَدِ اخْتَارَ لِيَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ أَنْ أَدْخُلَ الحِجَازَ مِنْ جِهَةِ الشَّامِ وَهَأَنَا بِكَ عَلَىٰ

أَبْوَابِ دِمَشْقَ ، وَدِمَشْقُ هِيَ الَّتِي تَفْضُلُ جَمِيعَ البِلادِ حُسْناً ، وَتَتَقَدَّمُهَا جَمَالاً ، وَكُلُّ وَصْفٍ قَاصِرٌ عَنْ مَحَاسِنِهَا وَإِنْ طَالَ . وَقَدْ قَالَ عَنْهَا سَابِقِي فِي الفَضْلِ الرَّحَّالَةُ أَبُو الحُسَيْنِ بْنُ جُبَيْر : هِيَ جَنَّةُ المَشْرِقِ ، وَعَرُوسُ المُدُنِ ، تَحَلَّتْ بِأَزَاهِرِ الرَّيَاحِينِ ، وَتَجَلَّتْ فِي حُلَلٍ مِنَ البَسَاتِينِ ، رَبْوَتُهَا ذَاتُ ظِلٍّ ظَلِيلٍ ، وَمَاءٍ سَلْسَبِيلٍ ، وَرِيَاضُهَا تُحْيِي النُّفُوسَ بِنَسِيمِهَا العَلِيلِ . امْتَدَّتْ بِشَرْقِيِّهَا غُوطَتُهَا الخَضْرَاءُ امْتِدَادَ البَصَرِ ، فَشَغَلَتْ بِحُبِّهَا الرُّوحَ قَبْلَ البَصَرِ ، وَصَدَقَ قَوْلُ مَنْ قَالَ فِيهَا : إِنْ كَانَتِ الجَنَّةُ فِي الأَرْضِ فَهِيَ دِمَشْقُ لاَ شَكَّ فِيهَا ، وَإِنْ كَانَتْ فِي السَّمَاءِ فَهِيَ تُسَامِيهَا وَتُحَاذِيها . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ عَلَىٰ رِسْلِكَ يَا ابْنَ بَطُّوطَةَ ، وَإِذَا شِئْتَ أَنْ تَصِفَ لَنَا دِمَشْقَ عَلَىٰ أَنَّهَا أَعْجُوبَةٌ مِنْ أَعَاجِيبِ الدَّهْرِ ، فَاقْتَصِرْ مِنْ ذَلِكَ عَلَىٰ عَشَرَةِ أُمُورٍ ، فَقَدْ قِيلَ مِنْ قَبْلِنَا (مَنْ عَشَّرَ فَقَدْ بَشَّرَ) فَهَاتِ بَشِّرْ بِمَا عِنْدَكَ ، وَضَعْ فِي عُهْدَةِ كَاتِبِنَا ابْنِ جُزَيٍّ سِجِلاًّ حَافِلاً ، لاَتَتْرُكْ بِهِ فَرْضاً وَلاَنَافِلاً . .

أَجَابَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ لَقَدْ قَنِعْتَ يَا مَوْلَايَ بِيَسِيرٍ ، وَمَا يُقَالُ فِي دِمَشْقَ أَكْثَرُ بِكَثِيرٍ ، وَهَأَنَذَا أَبْدَؤُكَ بِمَا يَسُرُّ الخَاطِرَ بِمَا ذَكَرَهُ عَنْهَا أَرْبَابُ القَرِيضِ وَالمَشَاعِرِ .

هُنَا تَدَخَّلَ فِي الحَدِيثِ الكَاتِبُ مُحَمَّدُ بْنُ جُزِّيٍّ وَقَالَ :

ـ إِذَا ذُكِرَ الشِّعْرُ فِي دِمَشْقَ ، فَاتْرُكَا ذَلِكَ عَلَيَّ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ خُذْ عَنْ صَاحِبِكَ ابْنِ بَطُّوطَةَ الجَانِبَ الأَوَّلَ مِنَ الجَوَانِبِ العَشَرَةِ ، وَاخْتَرْ مَا تَخْتَارُ مِنَ النَّظْمِ مُجْزِياً وَجَمِيلاً وَاخْتَصِرْ مَا اسْتَطَعْتَ لِئَلا تَجِيءَ بِهِ مُسْتَهْجَناً مَمْلُولاً .

قَالَ ابْنُ جُزِّيٍّ :

ـ اسْمَعْ يَا مَوْلَايَ :

إِنْ تَكُنْ جَنَّةُ الخُلُودِ بِأَرْضٍ فَدِمَشْقُ وَلَاتَكُونُ سِوَاهَا
أَوْ تَكُنْ فِي السَّمَاءِ فِهِيَ عَلَيْهَا قَدْ أَبَدَتْ هَوَاءَهَا وَهَوَاهَا

وَقَدْ سَمِعْتُ وَالِدِي يُنْشِدُ فِي وَصْفِ مَحَاسِنِ دِمَشْقَ غَيْرَ مَرَّةٍ :

دِمَشْقُ بِنَا شَوْقٌ إِلَيْهَا مُبَرِّحٌ وَإِنْ لَجَّ وَاشٍ أَوْ أَلَحَّ عَذُولُ
بِلَادٌ بِهَا الحَصْبَاءُ دُرٌّ وَتُرْبُهَا عَبِيرٌ، وَأَنْفَاسُ الشَّمَالِ شَمُولُ[1]

وَقَالَ الشَّاعِرُ فِيهَا :

أَمَّا دِمَشْقُ فَجَنَّةٌ يَنْسَىٰ بِهَا الوَطَنَ الغَرِيبْ
فِي مَوْطِنٍ غَنَّىٰ الحَمَامُ بِهِ عَلَىٰ رَقْصِ القَضِيبْ[2]
وَغَدَتْ أَزَاهِرُ رَوْضِهِ تَخْتَالُ فِي فَرَحٍ وَطِيبْ

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ وَأَيْنَ هَذَا مِمَّا قَالَهُ أَبُو عُبَادَةَ البُحْتُرِيُّ فِي مَحَاسِنِ دِمَشْقَ :

أَمَّا دِمَشْقُ فَقَدْ أَبْدَتْ مَحَاسِنَهَا وَقَدْ وَفَّىٰ لَكِ مُطْرِيهَا[3] بِمَا وَعَدَا
إِذَا أَرَدْتَ مَلأْتَ العَيْنَ مِنْ بَلَدٍ مُسْتَحْسَنٍ وَزَمَانٍ يُشْبِهُ البَلَدَا

(١) الشَّمول : الخمرة ، وعنىٰ بها طيبَ الهواء المنعش .
(٢) القضيب : الغصن .
(٣) مطريها : مادحها .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ لِنَطْوِ صَفْحَةَ الشِّعْرِ إِلَىٰ أُمُورٍ أُخْرَىٰ . .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ الأَمْرُ الثَّانِي الذِي تَتَمَيَّزُ بِهِ دِمَشْقُ جَامِعُهَا الأُمَوِيُّ الذِي تَوَلَّىٰ بِنَاءَهُ وَإِتْقَانَهُ ، أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ الوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، وَزَيَّنَهُ بِفُصُوصِ الذَّهَبِ المَعْرُوفَةِ بِالفُسَيْفُسَاءَ . لَهُ أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ ، وَتَنْعَقِدُ فِيهِ حَلَقَاتُ التَّدْرِيسِ فِي فُنُونِ العِلْمِ . وَأَئِمَّتُهُ ثَلاثَةَ عَشَرَ إِمَاماً جَمَعُوا المَذَاهِبَ الأَرْبَعَةَ مِنْ شَافِعِيٍّ وَمَالِكِيٍّ وَحَنَفِيٍّ وَحَنْبَلِيٍّ .

وَأَضَافَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ قَائِلاً :

ـ وَالأَمْرُ الثَّالِثُ يَا مَوْلاَيَ أَبْوَابُ دِمَشْقَ الثَّمَانِيَةُ ، وَمِنْهَا : بَابُ الجَابِيَةِ ، وَالبَابُ الصَّغِيرُ ، وَبَابُ الفَرَادِيسِ . . وَتِلْكَ الأَبْوَابُ تَجْمَعُ عَدَداً مِنَ المَشَاهِدِ وَالمَزَارَاتِ مِنْهَا قَبْرُ بِلالٍ مُؤَذِّنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَقَبْرُ أُبَيٍّ ابْنِ كَعْبٍ صَاحِبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَبْرُ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِالمَنِيحَةِ شَرْقِيِّ دِمَشْقَ .

وَأَضَافَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ وَرَابِعُ مَا أَتَعَرَّضُ إِلَىٰ ذِكْرِهِ أَرْبَاضُ دِمَشْقَ ، وَهِيَ كَالمُدُنِ الصَّغِيرَةِ ، لَكِنَّهَا فَسِيحَةُ السَّاحَاتِ ، عَامِرَةٌ بِالسُّكَّانِ وَالبُنْيَانِ ، وَفِي الجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ رَبَضُ الصَّالِحِيَّةِ ، وَهِيَ مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ لَهَا سُوقٌ لاَنَظِيرَ لِحُسْنِهِ ، وَفِيهَا مَسْجِدٌ جَامِعٌ وَمَارِسْتَان ، وَأَهْلُوهَا عَلَىٰ مَذْهَبِ الإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ بَعْدَ أَنْ التَقَطَ أَنْفَاسَهُ وَاسْتَحَثَّ ذَاكِرَتَهُ :

ـ وَخَامِسُ الأُمُورِ العَجِيبَةِ المُعْجِبَةِ جَبَلُ قَاسَيُونَ فِي شَمَالِ دِمَشْقَ ، وَالصَّالِحِيَّةُ فِي سَفْحِهِ ، وَهُوَ شَهِيرُ البَرَكَةِ لأَنَّهُ مَصْعَدُ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ ، وَمِنْ مَشَاهِدِهِ الكَرِيمَةِ الغَارُ الذِي وُلِدَ فِيهِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ، وَمِنْهَا كَهْفٌ بِأَعْلَىٰ الجَبَلِ يُنْسَبُ لآدَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ، وَعَلَيْهِ بِنَاءٌ وَبِأَسْفَلِهِ مَغَارَةٌ تُعْرَفُ بِمَغَارَةِ الجُوعِ . .

قَاطَعَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ مُحَدِّثَهُ ابْنَ بَطُّوطَةَ قَائِلاً :

ـ أَعُوذُ بِالله مِنَ الجُوعِ وَالعَطَشِ . . مَا حِكَايَةُ هَذِهِ المَغَارَةِ ؟ وَلِمَاذَا عُرِفَتْ بِهَذَا الاسْمِ ؟ ! . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةُ :

ـ ذَكَرُوا أَنَّهُ قَدْ أَوَىٰ إِلَىٰ المَغَارَةِ سَبْعُونَ مِنَ الأَنْبِيَاءِ أَوْ مِنْ رِجَالِ الله الصَّالِحِينَ فَاحْتَبَسَهُمْ حَابِسٌ ، وَضَلُّوا طَرِيقَهُمْ إِلَىٰ بَابِ المَغَارَةِ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ مِنَ الزَّادِ إِلاَّ رَغِيفٌ وَاحِدٌ ، وَتَسَرَّبَ إِلَيْهِمُ المَاءُ مِنْ صَخْرَةٍ بِأَعْلَىٰ المَغَارَةِ فَشَرِبُوا .

أَمَّا الطَّعَامُ فَمَا زَالَ أَحَدُهُمْ يَدْفَعُ بِالرَّغِيفِ إِلَىٰ صَاحِبِهِ مُؤْثِراً إِيَّاهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ حَتَّىٰ مَاتَ الجَمِيعُ جُوعاً ، وَعُرِفَتْ المَغَارَةُ مِنْ بَعْدِهِمْ بِمَغَارَةِ الجُوعِ ، وَعَلَىٰ هَذِهِ المَغَارَةِ مَسْجِدٌ مَبْنِيٌّ تُوقَدُ فِيهِ السُّرُجُ لَيْلاً وَنَهَاراً .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ هَذَا خَبَرٌ مِنْ عَجَائِبِ الأَخْبَارِ وَقِصَّةٌ مِنْ عَجَائِبِ القِصَصِ ، وَلَكِنْ لاَتَنْسَ مَا مَعَكَ مِنْ عَجَائِبِ دِمَشْقَ الأُخْرَىٰ ، وَعِلْمِي أَنَّكَ قَدْ ذَكَرْتَ خَمْسَةً مِنَ العَشَرَةِ التِي وَعَدْتَ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ صَدَقْتَ يَا مَوْلاَيَ ، وَهَأَنَذَا فِي طَرِيقِي لإِطْرَافِكَ بِخَبَرِ رَبْوَةِ دِمَشْقَ وَالقُرَىٰ الَّتِي تُوَالِيهَا . . وَسَادِسُ الأُمُورِ مِنَ المَشْهُورِ المَشْهُودِ بِدِمَشْقَ تِلْكَ الرَّبْوَةُ فِي آخِرِ جَبَلِ قَاسَيُونَ وَهِيَ رَبْوَةٌ مُبَارَكَةٌ ذَاتُ قَرَارٍ مَكِينٍ ، كَانَتْ مَأْوَىٰ المَسِيحِ عِيسَىٰ بْنِ مَرْيَمَ وَأُمِّهِ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلاَمُ . وَهِيَ مِنْ أَجْمَلِ مَنَاظِرِ الدُّنْيَا وَمُتَنَزَّهَاتِهَا . وَهَذِهِ الرَّبْوَةُ المُبَارَكَةُ هِيَ رَأْسُ بَسَاتِينِ دِمَشْقَ ، وَبِهَا مَنَابِعُ مِيَاهِهَا . وَفِي أَسْفَلِ الرَّبْوَةِ وَمَاحَوْلَهَا قُرَىٰ مَشْهُورَةٌ فِيهَا الحَمَّامَاتُ وَالمَسَاجِدُ الجَامِعَةُ وَالأَسْوَاقُ ، وَسُكَّانُهَا لاَ يَخْتَلِفُونَ عَنْ سُكَّانِ الحَوَاضِرِ فِي شَتَّىٰ مَنَاحِي حَيَاتِهِمْ وَأَعْرَافِهِمْ .

وَأَمَّا سَابِعُ الأُمُورِ يَا مَوْلاَيَ ، فَهُوَ نَهْرُ بَرَدَىٰ الذِي جَمَعَ إِلَيْهِ سَبْعَةَ أَنْهُرٍ ، وَأَكْبَرُ هَذِهِ الأَنْهُرِ المُسَمَّىٰ بِنَهْرِ تُورَةَ يَشُقُّ الحَجَرَ الصَّلْدَ وَيَنْدَفِعُ فِي هُوَّةٍ كَالغَارِ الكَبِيرِ . وَالعَجِيبُ المُعْجِبُ فِي الأَنْهُرِ السَّبْعَةِ المُجْتَمِعَةِ فِي بَرَدَىٰ ، أَنَّهَا تَذْهَبُ فِي طُرُقٍ شَتَّىٰ فَتَحَارُ الأَعْيُنُ فِي حُسْنِ اجْتِمَاعِهَا وَافْتِرَاقِهَا وَانْدِفَاعِهَا وَانْصِبَابِهَا حَتَّىٰ يَكُونَ جَمَالُ الرَّبْوَةِ الدِّمَشْقِيَّةِ أَعْظَمَ مِنْ أَنْ يُحِيطَ بِهِ الوَصْفُ . .

وَثَامِنُ مَا أَذْكُرُهُ مِنْ مَعَالِمِ دِمَشْقَ وَمَرَابِعِهَا تَعَدُّدُ المَسَاجِدِ وَالمَدَارِسِ وَالمَشَاهِدِ ، وَلاَ سِيَّمَا الخَوَانِقُ[1] الصُّوفِيَّةُ ، فَفِيهَا تُجْرَىٰ النَّفَقَةُ وَالكِسْوَةُ ، فَمَنْ نَزَلَ بِهَا غَرِيباً عَلَىٰ خَيْرٍ ، لَمْ يَزَلْ مَصُوناً عَنْ بَذْلِ مَاءِ وَجْهِه ، مَحْفُوظَ المُرُوءَةِ وَالكَرَامَةِ . وَمَنْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ عَافِيَةً وَاقْتِدَاراً ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ المِهَنِ وَجَدَ أَسْبَاباً مُهَيَّئَةً لِلمَعَاشِ ، كَحِرَاسَةِ بُسْتَانٍ أَوْ أَمَانَةِ طَاحُونَةٍ ، أَوْ كَفَالَةِ صِبْيَانٍ يَغْدُو مَعَهُمْ إِلَىٰ التَّعْلِيمِ وَيَرُوحُ ، وَمَنْ أَرَادَ طَلَبَ العِلْمِ أَوْ التَّفَرُّغَ لِلعِبَادَةِ وَجَدَ الإِعَانَةَ التَّامَّةَ عَلَىٰ ذَلِكَ . وَلَمْ يَخْفَ عَلَيَّ أَنَّ أَهْلَ دِمَشْقَ يُحْسِنُونَ الظَّنَّ بِالمَغَارِبَةِ وَيُطْمَئِنُّونَ إِلَيْهِمْ بِالأَمْوَالِ وَالأَهْلِينَ وَالأَوْلَادِ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ المَغْرِبِيُّ مُخَاطِباً مُحَدِّثَهُ الرَّحَّالَةَ ابْنَ بَطُّوطَةَ :

ـ أَنَا مَغْرِبِيٌّ مِنْ فَاسَ ، وَأَنْتَ مَغْرِبِيٌّ مِنْ طَنْجَةَ ، فَهَلْ لَكَ أَنْ تُحَدِّثَنَا بِمَا خَبَرْتَهُ وَجَرَّبْتَهُ مِنْ حُبِّ الدِّمَشْقِيَّةِ الكِرَامِ لِلمَغَارِبَةِ الأَغْرَابِ مِنْ أَمْثَالِكَ لِيَكُونَ مِنْهَا فِي الذَّاكِرَةِ وَالخَاطِرِ مَايُقَوِّي بَيْنَنَا الأَوَاصِرَ ؟ ! . .

---

(١) الخوانق : جمع خانقان وهو المأوىٰ والمعتكف الصوفي .

أَجَابَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ نَدِيمُ السُّلْطَانِ فَارِسِ بْنِ عَلِيٍّ أَبِي عِنَانٍ ، قَالَ :

ـ لَمَّا وَرَدْتُ إِلَىٰ دِمَشْقَ ، عَرَفْتُ فِيهَا الشَّيْخَ نُورَ الدِّينِ السَّخَاوِيَّ مُدَرِّسَ المَالِكِيَّةِ ، وَتعَمَّقَتْ بَيْنَنَا الصُّحْبَةُ فَدَعَانِي لأُفْطِرَ عِنْدَهُ فِي لَيَالِي رَمَضَانَ ، فَحَضَرْتُ عِنْدَهُ عَلَىٰ مَائِدَةِ الإِفْطَارِ أَرْبَعَ لَيَالٍ أَكْرَمَنِي فِيهَا غَايَةَ الإِكْرَامِ ، وَفِي خَامِسِ اللَيَالِي مَرِضْتُ بِالحُمَّىٰ فَغِبْتُ عَنْهُ ، فَبَعَثَ خَادِمَهُ فِي طَلَبِي ، فَاعْتَذَرْتُ بِالمَرَضِ ، فَلَمَّا عَلِمَ بِأَمْرِي جَاءَ وَصَحِبَنِي إِلَىٰ ضِيَافَتِهِ ، وَلَمْ يَقْبَلْ لِي فِي مُجَانَبَتِهِ عُذْراً . وَلَمَّا أَرَدْتُ الانْصِرَافَ تَخْفِيفاً عَنْهُ وَتَحَرُّجاً مِنَ الإِثْقَالِ مَنَعَنِي مِنْ ذَلِكَ قَائِلاً : احْسِبْ دَارِي هَذِهِ دَارَكَ ، أَوْ دَارَ أَبِيكَ ، أَوْ أَخِيكَ ، وَأَمَرَ بِإِحْضَارِ طَبِيبٍ ، وَأَنْ يُعْمَلَ بِنَصِيحَةِ الطَّبِيبِ فِي خِدْمَتِي ، وَفِي إِعْدَادِ مَا يَنْفَعُنِي مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَالمُوَاظَبَةِ عَلَىٰ تنَاوُلِ الدَّوَاءِ . وَأَقَمْتُ فِي دَارِ القَاضِي السَّخَاوِيِّ أَطْيَبَ إِقَامَةٍ إِلَىٰ يَوْمِ العِيدِ ، وَحَضَرْتُ المُصَلَّىٰ وَقَدْ شَفَانِي اللهُ تَعَالَىٰ مِمَّا أَصَابَنِي . وَكَانَ مَالِي قَدْ نَفِدَ ، فَلَمَّا عَلِمَ بِذَلِكَ وَعَلِمَ بِنِيَّةِ ارْتِحَالِي عَنْ دِمَشْقَ اكْتَرَىٰ لِي جِمَالاً ، وَأَعْطَانِي زَاداً وَفِيراً ، وَدَرَاهِمَ

كَافِيَةٌ ، وَقَالَ لِي : هَذِهِ بَعْضُ عِدَّتِكَ ، وَعَسَىٰ أَنْ تَذْكُرَنِي بِالخَيْرِ ، وَرَاحَ يَعْتَذِرُ اعْتِذَارَ الكِرَامِ عَمَّا بَدَرَ عَنْهُ تِجَاهِي مِنْ تَقْصِيرٍ ، وَأَنَا لَمْ أَجِدْ مِنْهُ إِلاَّ الكَرَمَ وَرَحَابَةَ الضِّيَافَةِ وَحُسْنَ الخُلُقِ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ حَسْبُكَ مَا رَوَيْتَ لِي مِنْ هَذِهِ الحِكَايَةِ ، وَالمَأْثُرَةِ العَجِيبَةِ لَدَىٰ صَاحِبِكَ القَاضِي . . وَقَدْ بِتُّ مُقْتَنِعاً بِطِيبِ أَهْلِ دِمَشْقَ وَكَرَمِهِم ، فَضْلاً عَنْ كَوْنِكَ يَا ابْنَ بَطُّوطَةَ رَاضِياً مَرْضِيّاً بِإِذْنِ الله .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ هَلْ يَأْذَنُ لِي مَوْلَايَ بِأَنْ أُحَدِّثَهُ بِتَاسِعِ مَاحَدَّثْتُ بِهِ مِنَ الأُمُورِ العَجِيبَةِ ، وَهُوَ رَمَضَانُ الدِّمَشْقِيُّ أَوْ رَمَضَانُ فِي دِمَشْقَ ؟ !

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ :

ـ لَكَ ذَلِكَ فَتَحَدَّثْ مَشْكُوراً وَمَأْجُوراً .

قَالَ الرَّحَّالَةُ وَالنَّدِيمُ المُسَامِرُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ اعْلَمْ يَا مَوْلَايَ أَنَّ مَا رَأَيْتُ وَسَمِعْتُ بِدِمَشْقَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ إِنَّمَا

يَرْجِعُ إِلَىٰ شَيْءٍ فِي نُفُوسِهِم مِنْ التُّقَىٰ وَالوَرَعِ وَالتَّحَابُبِ بَيْنَ المُسْلِمِينَ ، وَهُوَ أَمْرٌ يَفُوقُ المَظْهَرَ ، فَمِنْ فَضَائِلِهِمْ أَنَّهُ لاَ يُفْطِرُ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي لَيَالِي رَمَضَانَ وَحْدَهُ بَتَاتاً . وَالدِّمَشْقِيُّ إِذَا كَانَ مِنَ الأُمَرَاءِ وَالقُضَاةِ وَالكُبَرَاءِ دَعَا أَصْحَابَهُ وَمَا جَرَىٰ فِي عِلْمِهِ مِنْ ذَوِي الفَقْرِ وَالحَاجَةِ يُفْطِرُونَ عِنْدَهُ . وَمَنْ كَانَ مِنَ التُّجَّارِ المَيْسُورِينَ صَنَعَ مِثْلَ مَاصَنَعَ الأُمَرَاءُ وَالكِبَارُ وَالسَّرَاةُ اقْتِدَاءً بِهِمْ . أَمَّا الضُّعَفَاءُ وَأَهْلُ البَادِيَةِ فَإِنَّهُمْ يَجْتَمِعُونَ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي دَارِ أَحَدِهِمْ أَوْ فِي مَسْجِدٍ ، يَأْتِي كُلٌّ مِنْهُمْ بِمَا عِنْدَهُ فَيُفْطِرُونَ جَمِيعاً عَلَىٰ مَائِدَةٍ وَاحِدَةٍ . . هَذَا مَا وَجَدْتُهُ مِنْ أَهْلِ دِمَشْقَ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ :

ـ أَحْسَنْتَ فِيمَا رَوَيْتَهُ عَنْ دِمَشْقَ وَأَخْبَارِهَا وَعَجَائِبِهَا وَكَأَنَّكَ قَدْ نَقَلْتَنَا إِلَيْهَا عِيَاناً وَمُشَاهَدَةً وَجَعَلْتَنَا مُشْتَاقِينَ لأَنْ نَحُلَّ دِيَارَهَا المَعْمُورَةَ . . وَلَكِنْ يَا ابْنَ بَطُوطَةَ هَلْ وَجَدْتَ فِي أَهْلِ دِمَشْقَ وَطَبَائِعِهِمْ تَزَمُّتاً وَانْصِرَافاً عَنْ الدُّنْيَا فَنَقُولُ : إِنَّ مُعْظَمَهُمْ مِنَ المُتَصَوِّفَةِ الزَّاهِدِينَ ؟ !

قَالَ الرَّحَّالَةُ المُنَادِمُ لِلسُّلْطَانِ :

ـ كَلاَّ يَا مَوْلاَيَ ، فَهُمْ لاَ يَنْسَوْنَ نَصِيبَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا ، وَدَلِيلُ ذَلِكَ أَنَّهُمْ لاَ يَعْمَلُونَ يَوْمَ السَّبْتِ مِنْ كُلِّ أُسْبُوعٍ عَمَلاً يُذْكَرُ بَلْ هُمْ يَخْرُجُونَ إِلَىٰ المُتَنَزَّهَاتِ وَشُطُوطِ الأَنْهَارِ وَدَوْحَاتِ الأَشْجَارِ بَيْنَ البَسَاتِينِ الخَضْرَاءِ وَالمِيَاهِ الجَارِيَةِ ، يَقْضُونَ فِيهَا نَهَارَاتِهِمْ إِلَىٰ اللَّيْلِ ، وَقَدْ تَجِدُ مِنْهُمْ مَنْ يُولَعُ بِالمَعَازِفِ وَالأَنْغَامِ ، فَقَالَ فِيهِمْ قَائِلٌ مِنَ الشُّعَرَاءِ :

خَيِّمْ بِجِلَّقَ بَيْنَ الكَاسِ وَالوَتَرِ ... فِي جَنَّةٍ هِيَ مِلْءُ السَّمْعِ وَالبَصَرِ

وَقُلْ لِمَنْ لاَمَ فِي لَذَّاتِهِ بَشَراً ... دَعْنِي ، فَإِنَّكَ عِنْدِي سُوقَةُ البَشَرِ

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ :

ـ الحَمْدُ للّهِ الذِي لَمْ يَجْعَلْنَا مِنْ سُوقَةِ البَشَرِ . . وَرَدَّد الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ وَرَاءَ سُلْطَانِهِ أَبِي عِنَانٍ :

ـ الحَمْدُ للّهِ . . الحَمْدُ للّهِ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ :

ـ لَقَدْ وَفَّيْتَ هَذِهِ اللَيْلَةَ بِمَا رَوَيْتَ مِنْ أَخْبَارِ دِمَشْقَ جَنَّةِ البُلْدَانِ وَدُرَّةِ

الأَوْطَانِ ، وَلَكِنْ لاَ تَحْسِبْ أَنَّنَا قَدْ أَعْفَيْنَاكَ مِنْ ذِكْرِ الأَمْرِ العَاشِرِ الذِي تَتَمَيَّزُ بِهِ دِمَشْقُ عَنْ سِوَاهَا فِيمَا رَأَيْتَ وَسَمِعْتَ مِنَ الأَعَاجِيبِ الدَّهْرِيَّةِ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ لَكَ عَاشِرُ الأُمُورِ وَأَكْثَرُ ، وَلَكِنْ رِفْقاً بِصَاحِبِنَا ابْنِ جُزَيٍّ .

نَظَرَ السُّلْطَانُ إِلَىٰ كَاتِبِهِ ابْنِ جُزَيٍّ فَوَجَدَهُ قَدْ اتَّكَأَ عَلَىٰ يَمِينِهِ وَغَفَا . .

☆☆ ☆☆ ☆☆